

مهرجان في العالم السفلي

. سامي مهدي ❖ .

أمر :
« لا عليك هنا، أو أمير، سواي!
فأنا، ربّة التاج والصّولجان،
قد دعوتُ إلى أن يُقامَ لكم مهرجانٌ .
فاحضروا، كلُّكم، في الأوانِ
إنّ طمعتمُ بمغفرتي ورضائي . »
إرشكيغال^(١)

❖ ❖

نهضتُ إرشكيغالُ من نومها وهي تحلمُ بالمهرجانِ
وأشارتُ إلى أربعٍ من وصفاتها الخائراتِ ،
فجمَلنّها، ثمّ ألبسناها ثوبها وقلائدّها،
ووضعتُ على رأسها تاجها الحجريّ،
وسلّمتُها الصّولجانَ .
ومشتُ بينهنّ إلى قاعةِ العرشِ في ثقةٍ واحتشامٍ
وعلى جانبيها مسوخُ بلادِ الظلامِ
نظّمتُ في صفوفٍ ، وخلفَ الصفوفِ
كانَ ثمَّ حشودٌ تحدّقُ صامتةً في الضيوفِ
وهيَ ، في مشيها، تتخبّطُ
حتى تُقرّقعَ أطرافُها كعصيٍّ من الخيزرانِ .

❖ ❖

حينما جلستُ فوقَ ناصيةِ العرشِ واعتدلتُ
حدّقتُ في الوجوهُ
وبدا أنّها تتأهّبُ للبدءِ بالمهرجانِ ،
فقلتُ لمن نظّموه :
- « ابدأوا ! »
كانَ في وجهها حفرتانِ وعينانِ فارغتانِ
تنفثانِ لهيباً كأنّهما موقدانِ
وفمٌ أدرّدٌ، أجردٌ، نبتتُ فيه أفعى مكانَ اللسانِ .
ثمّ عادتُ وقالتُ لمن حولها :
- « أفلا تبدأون . . ابدأوا !؟ »
أينَ هم هؤلاءِ ؟!
أينَ من قيل لي : إنهم شعراءُ ؟!
وأينَ المغنّونَ والمنشدونَ ؟!
وأينَ الـ . . !؟ »
فقامَ وقاطعها أحدُ الجالسينِ :
- « عفو سيّدي . . إنهم مضربونُ !
رَفَضُوا أَنْ يُطِيعُوا أوامرَ حُرّاسِهِمْ ،
ورضوا، بعدَ طولِ مجادلةٍ، أنْ أكونُ
نائباً يتحدّثُ عنهم، فهل تأذنونُ ؟ ! »

❖ - شاعر من العراق

١ - إرشكيغال هي ملكة العالم السفلي في عقائد العراقيين القدامى وهي ابنة «أنو»، كبير الآلهة في تلك العقائد

كظمتُ غيظَها إرشيغالُ واصطنعتُ في الكلامِ البرودُ:

- «قد أذنتُ، ولكنْ ألا قلتَ لي: مَنْ تكونُ؟!»

- «عفو سيّدي، لستُ أكثرُ من شاهدٍ في الشُّهُودِ

عِشتُ في عالمِ الكلماتِ

نحو ستينَ حولاً من الحلمِ والأمنياتِ.

كانتِ الكلماتُ

عُدَّتِي في حياتي،

وكنْتُ أريدُ بها أن أُغيّرَ شكلَ الحياةِ.

كنتُ أحسبُ أنّي محيطٌ بها،

وعليّمْ بأسرارها،

كنتُ أحسبها آلةً في يدي تصنّعُ المعجزاتِ

ولكنني..»

- «قف.. كفى هذراً...»،

صرختُ إرشيغالُ،

«ما هذه التُّرّهاتُ؟!»

أوجئتُ تحدّثنا عن غرامِكَ بالكلماتِ،

أم عن الشعراءِ العُصاةِ؟!»

- «عفو سيّدي، ما تحدّثتُ إلا عن الشعراءِ،

فالحديثُ عن الكلماتِ حديثٌ عن الشعراءِ،

فهّمَ لعبةَ الكلماتِ!»

- «لعبةَ الكلماتِ؟!»

حسنٌ.. أرني كيفاً!»

- «سيّدي، هم يظنّون أنّهم اللاعبون،

فيبنونَ منها جنائناً من الوهمِ

تنهارُ من حيثُ لا يعلمون!

شُغِفُوا بالغناءِ، وما هو إلا بكاءُ،

وعَلُّوا في المديحِ،

وما علموا أنه لغةٌ في الهجاءِ،

وكلُّ ثنائِيّةٍ، في الكتابةِ والقولِ،

وجهانٍ للشّيءِ،

لا، بل قناعانِ.

أمّا حديثُ النقائضِ فهو افتراءٌ؛

فالدلالاتُ مائعةٌ

كالغيومِ إذا انتشرتْ في السماءِ،

تتشكّلُ في لحظةٍ ثمّ تنحلُّ،

تنقضُ أشكالها؛

والفضاءُ

مسرحٌ غامضٌ،

وعروضٌ مزوّقةٌ تفتنُ البلهاءِ.

هكذا هو، سيّدي، عالمُ الكلماتِ؛

فهّيَ أرجوحةٌ للدلالاتِ

تلهو بها حينَ تفتنُ أخيلةَ الشعراءِ،

وتطيرُ بهم فوقَ أجنحةٍ من حريٍ،
وتقدفهم في سعيٍ من الرغباتِ،
فيظنونَ، من فرطِ غفلتِهِم، أو براءتِهِم،
أنَّهُم أخوةُ الأنبياءِ! »

❖ ❖

ضحكتُ إرشكيغالُ،
لكنَّها أمرتهُ بالألأ يطيلُ،
بل يعودُ إلى الشعراءِ وإضرابِهِم
بكلامٍ قليلٍ.

- «أمر سيدي، سأعودُ إلى الشعراءِ
فهم طولبوا بمدائحَ يُلَقونها اليومَ في المهرجانِ،
فأَبَوْا،

فأحاطتُ بهم ثلَّةٌ من جنودِكِ، سيدي،
عَدَّبتَهُم، وأزرتُ بهم،
وأرْتَهُم صنوفَ الهوانِ.
ولذا أضربوا...»

- «ولذا أضربوا، قلتُ؟!»

- «سيدي، إنَّهُم مُحِبُّونُ،

ويقولونَ في حيرةٍ:

أنفاقُ هنا ونفاقُ هناكُ؟!!

أفلمَ نتعلَّم، إذن، أنَّ وجهَ الملاكِ

صورةٌ للهلاكِ؟!!

وأنَّ المديحَ، وقد قَلَّتْها، لغةٌ في الهجاءِ؟!!

فعلامَ المدائحُ ثانيةً؟!!

وعلامَ التورطُ في شَرَكِ الكلماتِ؟!!

عفو سيدي، هو ذا كلُّ ما جئتُ أحملُهُ من كلامٍ

عن الشعراءِ! »

❖ ❖

ضحكتُ إرشكيغالُ ثانيةً،

ثمَّ قالتُ لمن حولها في اتزانٍ:

- «أتركوا الشعراءِ وما يكتبونُ

ودعوهم، إذا سَكْتُوا، يَسْكُتونُ

بل دعوهم، إذا عَبَثُوا، يَعْْبَثونُ،

فَوَآنو، أباي، إنَّهُم فوقَ ما وُصِفُوا

في كتابِ الظنونِ! »

ثمَّ قامتُ إلى شأنها، وانتهى المهرجانُ.

بغداد